

٢٠٠١



د. أحمد شلبى

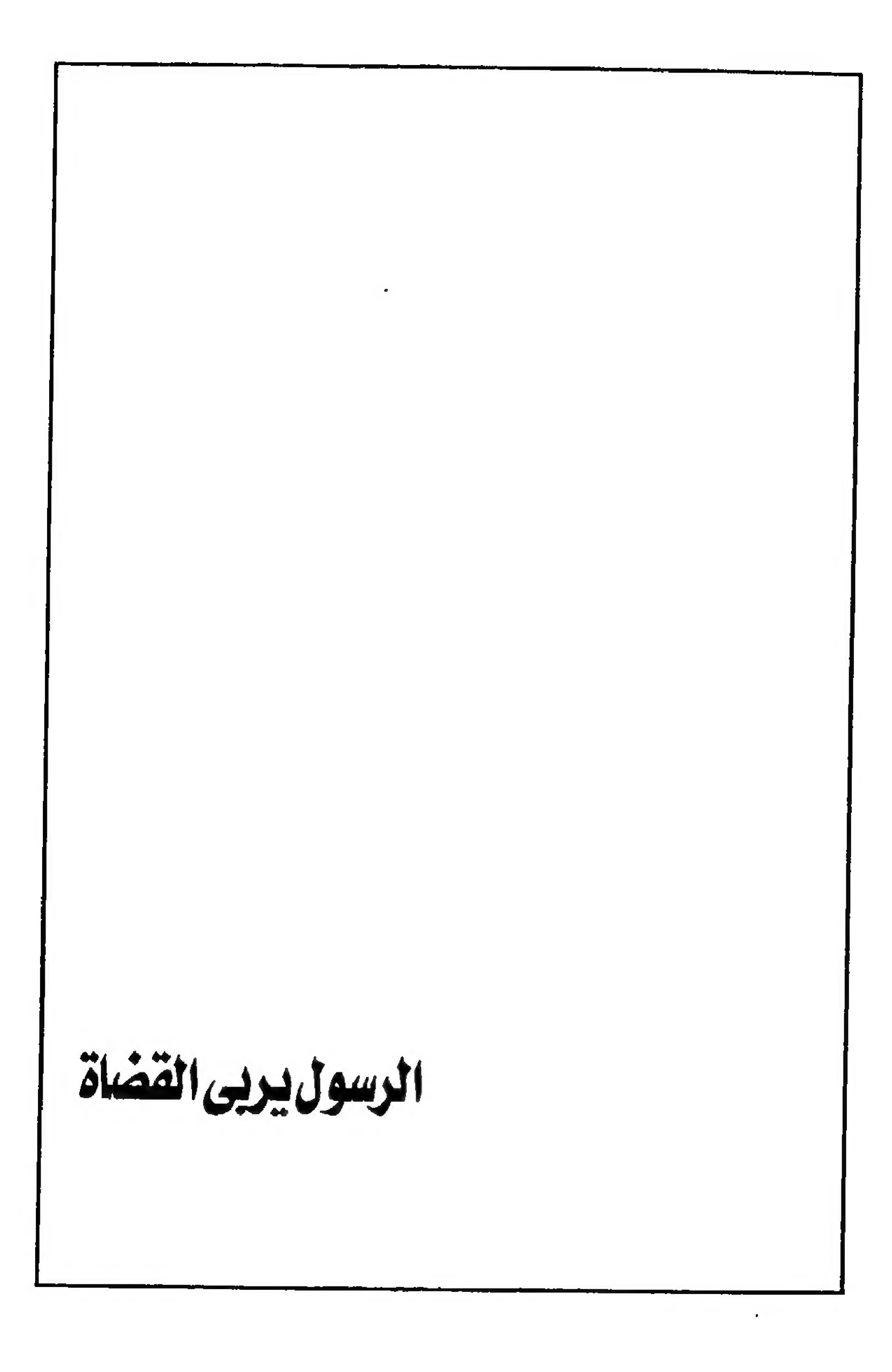
من السيرة النبوية العطرة

الجزء التاسع

الرسول يربِّى القضاة

الأعمال الدينية





الرسول يربى القضاة

من السيرة النبوية العطرة

(٩)

الرسول يربى القضاة

الرسول يربى القوة العسكرية

الرسول يربى الولاة والحكام

د. أحمد شلبى



مهرجان القراءة للجميع ٢٠٠١

مكتبة الأسرة

برعاية السيدة سوزان مبارك

(الأعمال الدينية)

من السيرة النبوية العطرة (٩)

الرسول يربى القضاة

الرسول يربى القوة العسكرية

الرسول يربي الولاة والحكام

د. أحمد شلبى

الغلاف

والإشراف الفنى:

الفنان : محمود الهندى

صبرى عبد الواحد

المشرف العام :

د. سمير سرحان

الجهات المشاركة :

جمعية الرعاية المتكاملة المركزية

وزارة الثقافة

وزارة الإعلام

وزارة التربية والتعليم

وزارة الإدارة المحلية

وزارة الشباب

التنفيذ : هيئة الكتاب

على سبيل التقديم :

كان الكتاب وسيظل حلم كل راغب فى المعرفة واقتناؤه غاية كل متشوق للثقافة مدرك لأهميتها فى تشكيل الوجدان والروح والفكر، هكذا كان حلم صاحبة فكرة القراءة للجميع ووليدها «مكتبة الأسرة» السيدة سوزان مبارك التى لم تبخل بوقت أو جهد فى سبيل إثراء الحياة الثقافية والاجتماعية لمواطنيها.. جاهدت وقادت حملة تنوير جديدة واستطاعت أن توفر لشباب مصر كتاباً جاداً ويسعر فى متناول الجميع ليشبع نهمه للمعرفة دون عناء مادى وعلى مدى السنوات السبع الماضية نجحت مكتبة الأسرة أن تتربع فى صدارة البيت المصرى بثراء إصداراتها المعرفية المتنوعة فى مختلف فروع المعرفة الإنسانية.. وهناك الآن أكثر من ٢٠٠٠ عنواناً وما يربو على الأربعين مليون نسخة كتاب بين أيادى أفراد الأسرة المصرية أطفالاً وشباباً وشيوخاً تتوجها موسوعة «مصر القديمة» للعالم الأثرى الكبير سليم حسن (١٨ جزء). وتنضم إليها هذا العام موسوعة «قصة الحضارة» فى (٢٠ جزء).. مع السلاسل المعتادة لمكتبة الأسرة لترفع وتوسع من موقع الكتاب فى البيت المصرى تنهل منه الأسرة المصرية زاداً ثقافياً باقياً على مر الزمن وسلاحاً فى عصر المعلومات.



الرســول يربى القضـــاة

اهتمَّ الإسلامُ بالقضاءِ اهتماماً كبيراً ، فالعدالـةُ فى القَضَاءِ مُزْدَوَجَةُ الفائـدةِ ؛ فيها إنصافٌ للمظلـومِ لتهدأَ نفسُه ، وفيها تَخْوِيفٌ للظالِمِ حتى لا يتكرَّرَ ظلمـهُ ، وقـد وَقَفَ الرسولُ صلواتُ الله عليه من القضاءِ موقِفَ الشارحِ البارعِ للقرآنِ الكريمِ ، المطبِّقِ للفكرِ الإسلاميِّ فى هذا المجالِ المُهِمِّ ، والذى يتابعُ مواقِفَ الرسولِ فى مجالِ تَرْبِيتِهِ للقُضَاةِ يجدُ أنَّ هذه المواقفَ شَمَلَتْ القضاءَ من جميعِ جوانِبـهِ ومراحِلِـهِ ، كما توضِّحُ ذلك الدراساتُ التاليةُ :

المسجد وقُدْسية القضاءِ :

وأَوَّلُ موقفٍ يلحَظُه الباحثُ،أنَّ الرسولَ اتَّخَذَ المسجدَ مكاناً للقضاءِ ، واتِّخاذُ المسجدِ مكاناً للقضاءِ يحمـلُ مَعْنىً أشارَ له ابنُ القَيِّمِ ، وهو قُدْسِيَّةُ القضاءِ ، فمادامَ القضاءُ يُعْقَدُ فى بيتِ اللهِ فإنَّ قدسيَّتَهُ تصبحُ واضِحَةً ، وإذا كانَ القضاءُ قد عُقِدَ بعد ذلك فى أَمكنةٍ أُخرَى ، واتُّخِذَتْ له قاعاتٌ خاصَّةٌ فقد انْسَحَبَتْ القدسيةُ إلى كلِّ مكانٍ يُقَامُ فيه ، وذلك ضماناً للعدالةِ وإحساساً بالمهمةِ الكبْرى التى يُزَاوِلُها القاضى .

العلنيـــة :

وانعقادُ جلسَةِ القضاءِ فى المسجِدِ وضع أَساساً ضروريًّا لهذه الجِلْسَةِ هو « العَلَنِيَّة » أى أَنْ تكونَ جِلْسَةُ القضاءِ مفتوحةً للجميعِ ، ويمكنُ لأىِّ فردٍ أَنْ يدخلَ ساحةَ المسجدِ ويتَّجِهَ إلى حيثُ يكونُ مجلسُ القاضى ، وحضورُ الجماهيرِ هذه الجِلسةَ سيكونُ نوعاً من التَّعليمِ والتَّدريبِ من جانبٍ ، وسيضْمَنُ من جانبٍ آخرَ عدالةَ الحكْمِ ، لأَن الجماهيرَ ستكونُ بمثابَةِ المراقبِ الذى يُحِسُّ بقدْرِ التهمةِ ، ومَدَى الأَدِلَّةِ ، ونوعِ الحكمِ .

ضرورة العـلم للقاضى :

وبعدَ الحديثِ عن مكانِ التقاضى نتابع الرسولَ صلواتُ الله عليه وهو يُبْرِزُ لنا أَهمَّ شروطِ القاضِى والتزاماتِه ، ولعلَّ أولَ شرطٍ نقتبسُه من كلامِ الرسولِ هو شرطُ العلمِ الذى لا يَجْلِسُ الإنسانُ مجلسَ القاضى بدونِه ، يقول عليه السلام :

القضاةُ ثلاثةٌ : قاضٍ فى الجنةِ و قاضِيَانِ فى النارِ ، فاضٍ عَرَفَ الحقَّ فقَضَى به فهو فى الجنةِ ، وقاضٍ عرف الحقَّ فقضَى بخلافِه فهو فى النار ، وقاضٍ قَضَى على جهلٍ فهو فى النارِ (رواه أبو داود) . فالجزءُ الأَخيرُ من الحديثِ يقرِّرُ أَنَّ القاضىَ الجاهل بالأَحكامِ يُدْفَع للنارِ وإِنْ أَصابَ فى قضائِه ،

لأن إصابَتَهُ جاءتْ مصادفةً ، والقاضِي لابدَّ أن يكونَ على درجةٍ كافيةٍ من العلمِ ولا تَتَحَكَّمُ المصادفةُ فى أحْكامِهِ .

العـــدالة :

ونَستمرُّ مع هذا الحديثِ الشريفِ فنَرى جُزْأَهُ الأَوْسَطَ يقرِّرُ ضرورةَ العدالَةِ ، ويراها من أَبْرزِ شروطِ القاضِى ، فالقاضِي ، الذى عرف الحقَّ وقضَي بسواه يُدفَعُ به إلى النارِ مع القاضى الجاهِلِ ، لأنه لم يَنْتَفِعْ بما عَرَفَ ولم يُؤدِّ حقَّ اللهِ ، ويتكرَّرُ هذا المعنى فى حديثٍ آخر رواه البيهقى ونصُّهُ : إذا جلسَ القاضِي فى مكانِه هَبَطَ عليه مَلَكَانِ يسدِّدَانِهِ ويوفِّقانِه ويُرْشِدَانِه ، ما لم يَجُرْ ، فإن جَارَ عَرَجا وتَرَكَاهُ . وهكذا نَجِدُ عَوْنَ اللهِ مع القاضِي الذى يتَّجِهُ للعدالَةِ ، أما الذى يَتَّجِهُ للجَوْرِ والظلمِ فيَكِلُهُ الله لنفسِه ، والويلُ كلُّ الويلِ لمن لا يكونُ معه عون اللهِ وتوفِيقُه .

البعدُ عن الرشوة :

وهناكَ خَصْلَةٌ يبرِزُها الرسولُ للحكامِ بوجهٍ عامٍّ وللقضاةِ بوجهٍ خاصٍّ ، تلك هى البعدُ عن شُبهاتِ الرِّشوةِ والهدايا ؛ يقولُ ﷺ : ما فَشَتْ الرشوةُ فى قومٍ إلا أُخِذُوا بالرُّعْبِ ، ويُعَدُّ القاضى من أَوَّل العمالِ الذين يَحْرُمُ عليهم أىُّ شيءٍ

يُشَكِّكُ أو يُؤَثِّرُ فى عَدَالَتِهم ، حتى ان القضاةَ المسلمينَ كانوا يكرَهُونَ أن يتَّخِذُوا أصدقاء يُكْثِرُونَ التردُّدَ على منازِلهم ، إذ قد يَتَوَهَّمُ الناسُ أن هذا الذى يتردَّدُ على بيتِ القاضى له عنده مَنْزِلَةٌ قد تُتَّخَذُ أساسَ استغلالٍ غيرِ مشروعٍ .

التسويةُ بينَ المتخاصمين وسماعُ طَرَفَىْ الخصومةِ :

وتَنْتَقِلُ بنا أحاديثُ الرسولِ إلى نقطةٍ أخرى مهمَّةٍ ، هى التسويةُ بين المتخاصمين فى مجلسِ الحكمِ . وفى هذا الصدد يَرْوِى أبو داود عن عبدِ الله بن الزبير أن الرسولَ ﷺ قَضَى أن الخصمَيْنِ يَقْعُدَانِ بين يَدَىْ القاضى ، ولم يَكْتَفِ الرسولُ بالمساواةِ فى المجلس بل أَلْزَمَ القاضىَ أن يسوِّىَ بين الخصْمَيْنِ فى نقاطٍ دقيقةٍ نراها فى قوله ﷺ : سوِّ بين الخصْمَيْنِ فى لَحْظِكَ ولَفْظِكَ (أى فى نظرتِك وكلماتك) .

وبعد الجلسةِ والمساواة فيها ، تجيءُ إرشاداتُ الرسولِ حولَ ضرورةِ سَمَاعِ طرفَىْ الخصومةِ قبل الحكم ، وهو فى ذلك يقولُ : إذا جلسَ الخصمانِ بين يديك فلا تَقْضِ حتى تسمعَ كلامَ كلٍّ منهما ، فإنه أَحْرَى أنْ يَتَبَيَّنَ لك وَجْهُ الحقِّ .

وعندَ سماعِ الطرفَيْنِ يُنَبِّهُ الرسولُ إلى موضوعٍ خطيرٍ هو

إمكانُ أن يكونَ أحدُ الطرفينِ فصيحاً ، وأن يكونَ الآخَرُ ضعيفَ التَّعْبِيرِ مما قد يُؤَثِّرُ على القاضى ، وفى ذلك يقول المعلِّمُ العظيمُ : إنكم تختصِمُون إلىَّ وإنما أنا بَشَرٌ ، ولعلَّ بعضَكُم يكون أبلغَ بحجَّتِهِ من الآخرِ ، وإنما أَقْضِي بينَكم على نَحْو ما أَسْمَع ، فمن قَضيتُ له من حقِّ أخيه شيئاً فلا يَأْخُذْه . فإنما ذلك قطعةٌ من النارِ يأتِي بها فى عُنُقِهِ يومَ القيامةِ .

ويُرْوَى فى هذا المجالِ أن رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فى ميراثٍ وتَقَاضَيَا أمامَ الرسولِ ، فقال لَهما هذا الحديثَ ، فخافَ كلٌّ منهما أَنْ ينالَ من صاحبِهِ أكثرَ من حَقِّهِ ، فقال كلٌّ منهما للآخرِ : تركتُ حَقِّى لك ، فقال الرسول لهما : أمَّا الآنَ فقومَا واقْتَسِمَا وتوخَّيَا (اقصدا) الحق ، ثم ليحلِّلْ كلٌّ واحدٍ منكما صاحِبَه (أى يسامحه) .

الأدلـــة :

وبعد سماعِ الطرفَيْنِ على النحوِ السابقِ يجيءُ دورُ الأدلةِ ، ويوضِّح الرسولُ أن البيِّنَةَ (الدليلَ أو الشهودَ) على من ادَّعَى واليمينَ على من أنْكَرَ ، وقد طلب الرسول البينة مرةً من مدَّعٍ فأجاب هذا : ماعندى شهودٌ فالعملُ الذى أشكو منه لم

يحضره أحد معنا . فقال الرسولُ إذن اليمين على صاحبك . فَقَبِل المدَّعى هذا ، ولكنَّ الرسولَ ذكَّر المنكرَ قبلَ أنْ يُقْسِمَ بأن « من حَلَفَ يميناً يَقْتَطِعُ بها مالَ امرىءٍ بغيرِ حقٍّ جاء يوم القيامةِ وهذا الحق معلَّقٌ فى رَقبتِهِ » فخافَ الرجلُ ولم يحلِفْ اليمينَ ، وتركَ ما اختلفَا عليه للمدَّعى .

الحُكْمُ وأُسُسُه :

وبعدَ سماعِ قولِ الطرفَيْنِ وسماعِ الشهودِ أو اليمينِ يجىءُ دَوْرُ الحُكْمِ الذى يَنْبَنِي عَلى النصِّ أو على الاجتهادِ ، وقد وضعَ الرسولُ أُسُسَ التدرُّجِ فى ذلك فى حديثِهِ مع مُعاذِ بن جبلٍ عندما اخْتارَهُ ليرسلَه لليمنِ داعيةً وقاضياً ، وقد ذكرنا هذه المحادثةَ عند كلامنَا عن تربيةِ الرسولِ للعلماءِ والدعاةِ ، وخلاصتُها أَن القاضىَ يَتْبَعُ كلامَ اللهِ ، فإنْ لم يَجِدْ فيه نصًّا يساعدُه اتَّبعَ كلامَ رسولِ اللهِ ، فإن لم يجد حديثاً يساعدُه اجتهدَ رَأْيَه فى حدودِ الإطارِ الإسلامىِّ الشاملِ ، وعندما قالَ مُعاذٌ للرسول هذا القولَ فَرِحَ الرسولُ وقال : الحمدُ للهِ الذى وَفَّقَ رسولَ رسولِ اللهِ لما يُرْضِى للهَ ورسولَه .

الاجتهادُ وقَدْرُه فى الإسلام :

ومن رَوْعَةِ الإسلامِ أَن المجتهدَ عن علمٍ يُثَابُ على

اجتهادِه ومحاولتِه حتى وإن أخطأ ، وفى ذلك يقول الرسول عليه السلام : **إذا اجتهدَ القاضى فأصابَ فله أجرانِ ، وإن اجتهدَ وأخطأ فله أجرٌ واحدٌ .**

ومن تقديرِ الاجتهادِ ما رُوِىَ أَنَّ رجلًا جاءَ يشكو إلى عُمَرَ من أمرٍ ، فأحاله عمرُ إلى علىٍّ بن أبى طالب ، وقضَى علىٌّ فى المسألةِ برَأْيِهِ إذْ لم يكنْ هناك نصٌّ يَلْجَأُ له ، وبعدَ فترةٍ الْتَقى عمرُ بالرجلِ الشاكي فسأله عمر : ماذا فَعَلَ علىٌّ فى شكواك ؟ فأخبره الرجلُ ، فقال عمر : لو كنتُ أنا الذى قضيتُ لقضيتُ بكذا ..

وكان رأىُ عمرَ فى صالحِ الرجلِ ، فصاحَ به الرجل قائلًا : وما يَمْنَعُكَ والأمرُ لك ؟ قال عمرُ : وكيف أعرفُ أَنَّ رأيِى أفضلُ من رأيِ علىٍّ ؟ .

ولم يُغَيِّرْ عمرُ الحكمَ الذى قَضَى به علىٌّ .

لاشفاعة فى الحكم :

ويُوَضِّح الرسولُ أبلغَ وضوحٍ أنه لاشفاعَةَ فى الحكْم ، وأنَّ القوانينَ الإسلاميةَ يَستَوِى فى الخضوعِ لها الملكُ المتوَّجُ والفقيرُ البائسُ ، فعندَما سَرَقَتْ امرأةٌ من بنى مخزومٍ وهم من

أشرافِ قريشٍ توقّع قومُها أن الرسولَ سيُقيمُ عليها الحدَّ ، فتشفَّعُوا للرسولِ بأُسامة بن زيد ، فلما تكلَّمَ أسامةُ مع الرسول فى ذلك صاح فيه الرسولُ : أتَشْفَعُ فى حدٍّ من حدودِ اللهِ يا أُسَامَة ؟ إنما هَلَكَ مَنْ كان قبلَكم أنهم كانوا إذا سَرَقَ الشريفُ تَرَكُوه ، وإذا سرق الضعيفُ عاقَبُوه ، وأيْمُ اللهِ لو أنَّ فاطمةَ بنتَ محمد سرقت لَقَطَعَ محمدٌ يدَها (رواه البخارى) .

وقد تأثَّرَ القضاةُ المسلمون تأثُراً عميقا بهذا الاتجاهِ النبوىِّ الكريمِ ، ومن ذلك مايَذْكُرُه الكندى أن « تَوْبَةَ بن نَمِـر الحضرمى » لما وَلِىَ القضاءِ دعا زوجَتَه وسألها : كيفَ علمْتِ محبّتي لك؟ قالت : جَزَاكَ اللهُ من عشيرٍ خيراً . فقال توبة والآن وقد علمْتِ ماأُبْلِينَا به من أَمْرِ القضاءِ ، فأنتِ طالقٌ ...

ولم تَتْرُكْهُ الزوجةُ يُكْمِلُ ما يريدُ أنْ يقولَ ، فصاحتْ خائفةً من الطَّلاقِ ، ولكنه قال لها اصْبرى حتى تسمَعِى ماأُريدُ أنْ أقولَ : أنتِ طالقٌ إن كلَّمْتِنى فى خَصْمٍ أو تشفَّعتِ فى قضاءٍ . فيُرْوَى أنها كانتْ ترفضُ أن تَضَعَ له الماءَ فى الدواةِ خَشْيَةَ أنْ يكونَ فى ذلك إشارةٌ إلى استعْجالٍ فى قضاءٍ .

وهكذا كان نهجُ الرسولِ فى القضاء تعليمًا وتهذيبًا للأجيالِ بدءًا من أسامة بن زيد ومعاذِ بن جبل واستمرارًا حتى الآن ، ودائماً فى كلِّ زمانٍ ومكانٍ ، لأنه نهجٌ سليمٌ فى إرشادٍ مِنْ هُدَى الله ومن مَوْهِبَةِ الرسولِ ، وما أعظمَ النهجَ الذى يتَّخِذُ هذَيْنِ أساسًا له .

كلنا قضاة فيما نتولاه من أمور :

وبعد ، أُريدُ فى ختامِ هذا البحثِ أن أنبِّهَ إلى نقطةٍ مهمةٍ ، هى أنَّ القضاءَ الذى نَعْنِيه ليس هو القضاءَ فى المحاكِم فقط ، بل هو أوسعُ جدًّا من ذلك ، فأنت أيها القارِىءُ ، وأنتِ أيتُها القارئةُ كل منكما يُصْبِحُ قاضيًا فى ظروفٍ متعدِّدَةٍ ، فالأبُ فى البيتِ قاضٍ فى مشكلاتِ البيتِ والأولادِ ، والأمُّ قاضيةٌ كذلك بينَ أولادِها ، والرئيسُ فى المصلحةِ قاضٍ بين مرءُوسيهِ ، وعمدةُ القريةِ قاضٍ بين أهلِيها ، ورجلُ الشرطةِ قاضٍ يُثْبِتُ الحقَّ وربما قَضَى به ، والمدرسُ قاضٍ بين تلاميذِه ، وبخاصةٍ عند تقديرِ درجاتِ الامتحان ....

فلْيَحْذَرْ كلٌّ منا أن يَنْحَرِفَ فيما يُبَاشِرُه من قَضاء .

الرسولُ يربِّى القوةَ العسكرية

إذا كانَ عهدُ الإسلام فى مكةَ لم يَحْتَجْ إلى قوةٍ عسكريَّةٍ إذْ لم يكنْ الإذنُ بالقتالِ قد نَزَلَ بَعْدُ ، فإن عهدَ المدينةِ كانَ حافلًا بالصِّرَاعِ ، إذْ نَزَلَ قولُه تعالَى « أُذِنَ للذينَ يُقَاتَلُونَ بأنَّهُمْ ظُلِمُوا ، وإن اللهَ على نصرِهِمْ لقَدِيرٌ » وقوله « وقَاتِلُوا فى سبيلِ اللهِ الذين يُقَاتِلونَكم ولا تَعْتَدُوا إن اللهَ لا يُحبُّ المعتدِينَ » وقد بدأَتْ السرايَا والغزوَاتُ عَقِبَ الهجرةِ واستمَرَّتْ طِيلَةَ عهدِ المدينةِ ، ومن هنا كانَ من الضروريِّ أنْ يربِّىَ الرسولُ القوة العسكرية لِيُوَاجهَ بها الباطلَ الذى اتَّجَهَ لتهدِيدِ الدعوةِ بحدِّ السلاحِ عَقِبَ نجاحِ الهجرةِ .

ومن هنا اهْتَمَّ الرسولُ اهتماماً كبيراً بالحَثِّ على القوةِ ، وتَرْبيةِ الرَّغْبَةِ فى الجهادِ عندَ المسلمينَ ، كما بَذَلَ جهدًا كبيرًا فى إعدادِ المجاهِدِ وفى التقليلِ من شَأْنِ مَنْ لَمْ يكنْ له حظٌّ فى الجهادِ .

فعنْ الحثِّ على القُوَّةِ يقولُ ﷺ « المؤمنُ القوىُّ خَيْرٌ وأَكْرَمُ عندَ اللهِ من المؤمِنِ الضعيفِ » .

وعن تربيةِ الرغبةِ فى الجهادِ يقولُ عليه السلامُ الأحاديثَ التاليةَ :

– إنَّ أَبْوَابَ الجنةِ تَحْتَ ظِلالِ السُّيُوفِ .

– لَغَدْوَةٌ أَوْ رَوْحَةٌ فى سبيلِ اللهِ خيرٌ من الدُّنيا ومَا فيها .

– رباطُ يومٍ فى سبيلِ اللهِ خيرٌ مما طَلَعَتْ عليه الشمسُ .

– مَنْ قاتلَ فى سبيلِ الله وجَبَتْ له الجنةُ ، ومن جُرِحَ جراحاً فى سبيل اللهِ جاءتْ جراحُهُ يومَ القيامةِ لونُها الزَّعْفرانُ وريحُها المسكُ .

وواضحٌ أنَّ مِنَ الناسِ مَنْ لا يَقْوَى على خَوْضِ المعاركِ لَهَرَمٍ (كِبَرِ السنِّ) أو ضعفٍ أو ما مَاثَلَ ذلك ، وهؤلاءِ يَحُثُّهم الرسولُ على مساعدةِ المجاهدينَ ما استَطَاعُوا ، وفى ذلك يقولُ عليه السلامُ : مَنْ جَهَّزَ غازِيًا كانَ له مثلُ أَجْرِهِ من غَيْرِ أن يَنْقُصَ من أَجْرِ الغازِى شَيْئًا .

أما الذى لا يُجَاهد بنفسِه ، ولا يُسَاعِدُ المجاهدينَ ، فالرسولُ يُنْذِرُه ويَتَوَعَّده ، قال عليه السلامُ :

– من لَقِيَ اللهَ وليسَ له أَثَرٌ فى سبيلِ اللهِ ، لقىَ اللهَ وفيه ثُلْمَةٌ (خللٌ ونُقْصَانٌ) .

- مَنْ لَمْ يَغْزُ ، أو لم يُجَهِّزْ غَازِياً ، أو لَمْ يَخْلُفْ غازياً فى أَهْلِه بخيرٍ ، أَصَابَهُ اللهُ بقارِعَةٍ قَبْلَ يومِ القيامةِ .

وفى ضوءِ هذه الإرشادَاتِ ، والوعدِ والوَعيدِ ، تكوَّنَتْ حَوْلَ الرسولِ أعظمُ قوةٍ عَرَفَتْهَا الجزيرةُ العربيةُ ، وأَحَاطَتْ هذه القوةُ بالرسولِ تَعْمَلُ لنَيْلِ إحدَى الحسنيين : النَّصْرِ أو الشهادةِ ، وسنَعيشُ مع الرسولِ صلواتُ اللهِ عليه وهو يعلِّمُ المسلمينَ فنونَ الحربِ وإدارةَ المعركةِ فى جميعِ مَرَاحِلِها .

المفـــاجأة :

ومن أَهَمِّ ما عُنِىَ به الـرسولُ أنـه كانَ إذا أَرادَ خَوْضَ معركةٍ ، كَتَمَ سِرَّ اتِّجاهِهِ الذى يسعَى إليهِ حتَّى عنِ أَقْرَبِ الناسِ إليه ليفاجِىءَ الأَعْدَاءَ بهُجُومِهِ ، وهوَ هَدَفٌ يحاوِلُ كبارُ القادةِ أَن يَتَمَثَّلُوه حتى الآن ، وقد رُوِىَ عن كعبِ بنِ مالكٍ أَنَ النبىَّ ﷺ كانَ إذا أرادَ أَنْ يَغْزُوَ غَزْوَةً ورَّى بغيرِها (أى أَظهرَ غيرَ ما يُرِيدُ) ، وعن أَنس أَنَّ رسولَ اللهِ قُبَيْلَ غزوةِ بدرٍ هتفَ بأَصحابِه قائلًا : إنَّ لنا هدفًا ، فمنْ كانَ ظهرُه حاضراً فليركبْ معنا ، ولم يحدِّدْ الرسولُ الهَدَفَ . وكان إذا عَقَدَ اللواءَ فى سَرِيَّةٍ من السَّرَايَا لأَحَدِ أَصحابِهِ ، يَرْكُزُ اللواءَ فى فِنَاءِ المسجدِ (يَغْرِزُه فى الأَرضِ) ويختارُ بعضَ

الابطالِ ولا يُحَدِّدُ المكانَ لأميرِ السريَّةِ إلاّ عندَ التحرُّكِ ، وأحياناً كان يكتُبُ له كتاباً ويَطْوِيهِ ويأْمُره بالاتجاه نحو الشمالِ أو الجنوبِ مثلا ، وألا يفتحَ الكتابَ إلا فى مكانٍ يحدِّدُه ، وكلُّ ذلك حتى لا يَتَسَرَّبَ الخبرُ للعدوِّ فيبادِرَ بالهجومِ وتفشلَ الخُطَّةُ .

التعرُّفُ على أخبارِ العدوِّ :

ومما عُنِىَ به الرسولُ أنه قبلَ المعركةِ كان يبذُلُ كلَّ الجهدِ ليَتَعَرَّفَ على أخبارِ العدوِّ حتى يَأْخُذَ للأمرِ عُدَّتَهُ ، يَرْوِى أنسٌ أنَّ الرسولَ قُبَيْلَ غزوةِ بدرٍ بَعَثَ بسبسَ بنَ بشرٍ عيناً يَنْقُلُ له أخبارَ عِيرِ أبى سُفيانَ ، كما أرسلَ طلحة بنَ عبيدِ الله وسعيدَ بنَ زيدٍ إلى طريقِ الشامِ يَتَجَسَّسَانِ له الأخبارَ ، وكانَ له جواسيسُ بمكةَ يأْتونه بأخبارِها ، ومنهم عمُّه العباسُ وبَشِيرُ بنُ سفيان العتقى ، ولما نَزَلَ قريبًا من بدرٍ خَرَجَ بنفسِه ومعه أبو بكر يَسْتَطْلِعَان الأخبارَ متنكِّرَيْنِ .

وقد بَلَغَ من حرصِهِ على التعرُّفِ على أخبارِ العدوِّ أنه أَمَرَ زيدَ بنَ ثابتٍ أن يتعلَّمَ لغةَ اليهودِ ليستطيعَ أَنْ يتعرَّف أخبارَهم ، ويُرْوَى أنه أَرسلَ عبدَ الله بنَ جحشٍ مع ثمانيةٍ من

المهاجرينَ ، ووَجَّهَهُمْ تِجَاهَ مكة دونَ أَنْ يُعَيِّن لهم الغَرَضَ من حِلِتهم، وكتبَ إلى عبدِ الله كتاباً أمره ألا يفتَحَه إلا بعدَ مسيرةِ يومَيْنِ ، وسارَ عبدُ اللهِ مع رفاقِه طيلةَ اليومَيْنِ ثم فَتَحَ الخطابَ فإذا فيه :إذا نظرتَ فى كتابى هذا فأمْعِنْ (استمرَّ فى السَّيرِ) حتى تنزلَ (نخلةَ)(بين مكةَ والطائِف)فتربَّصْ بها قريشاً ،وتعلَّمْ لنا أخبارَهم .

التَّعاملُ مع الجواسيسِ :

ولما كانَ من الممكنِ ومن المتوَقَّعِ أَنْ يرسِلَ الأعداءُ عيوناً لهم ليتعرَّفُوا أخبارَ المسلمينَ فقد وَضَعَ الرسولُ نظاماً لمعاملةِ هؤلاءِ الجواسيسِ ، ومن التَّعاليمِ التى وَضَعَهَا الرسولُ أَنَّ المسلمينَ إذا عَرَفُوا الجاسوسَ تَظاهَرُوا بأنَّهم لم يعْرِفُوه ، ثم يتركونَ بعضَ الأنباءِ تَتَسَرَّبُ إليهِ ليخدَعُوه ويَخدَعُوا مُرْسِلِيه ، وإذا اضْطُرَّ المسلمونَ أن يُظْهِرُوا للجاسوسِ اكتشافَهم لأمرِهِ فإنهم يحاوِلُونَ أن يعامِلُوه بلطفٍ ويستميلُوه إليهم لعلَّهُمْ يحصُلُون منه على أخبارٍ تنفعُهم ، أو ليرسِلُوا عن طريقِه إلى العدوِّ أخبارًا غيرَ صحيحةٍ ، وقد عَثَرَ المسلمونَ يومَ بدرٍ على واحدٍ من عيونِ قريشٍ وأرادَ بعضُ المسلمينَ العدوانَ عليه ، ولكنَّ الرسولَ نَهاهُمْ عن ذلك ، واستدْعاه وسأله عن عددِ جيشِ قريشٍ فلم يعرِف ، فسأله عما ينحَرُونَ من الإبلِ كلَّ يومٍ فأجابَ

بأنهم ينحرون تسعة فى يومٍ وعشرةً فى يومٍ آخرَ فاستَنْتَجَ الرسولُ أَنَّ العددَ يتراوَحُ بين تِسعمائةٍ وألِفٍ .

تنظيمُ الجيشِ :

واهتمَّ الرسولُ اهتماماً بالغاً بتنظيمِ الجيشِ تنظيماً شَمَلَ مسيرةَ الجيشِ وتَرْتيبَه ، فهو يسيرُ بجيشِه ، ويَكونُ سَيْرُه هو فى آخِرِ الركبِ ليشجِّعَ الضعيفَ ، وليُرْدِفَ الْمُنْقَطِعَ (يُرْكِبُه خَلْفَه) .

وهو يلبَسُ للحربِ لِبَاسَه وعدَّتَه ، ويحمِلُ الجيشُ الأَلْويةَ ، وتُنْشَدُ الأَناشيدُ للتَّشجيعِ والحماسةِ .

وإذا واجهَ الجيشُ العدوَّ قَسَّمَهُ الرسولُ إلى قلبٍ ومَيْمنةٍ ومَيْسرةٍ ، وجعلَ على كلٍّ منها قائداً ، وكانَ يُوقِفُ الرماةَ خلفَ الجيشِ لحمايةِ ظَهْرِهِ ، وكانَ يحاوِلُ أَنْ يقومَ بعمليَّةِ التفافٍ حولَ العدوِّ .

وكان يتَّخِذُ للجيش كلمةَ سرٍّ ، وكان من كلماتِ السرِّ (منصور – حم) .

وكانَ يضعُ كلَّ محاربٍ مع أَفراد قبيلته فى مكانٍ معيَّنٍ ليتعاوَنَ أفرادُ القبيلة وليحرِصوا على ألَّاتوجَدَ ثُغْرَةٌ فى موقِعِهم .

وكانَ يوصى كبارَ مساعدِيه بالصبرِ والثباتِ ، ومن وصيّته لعبدِ الله بن جُبَيْرٍ أميرِ الرماةِ فى غزوةِ أُحدٍ قولُه : أَنْضِحْ الخيلَ عنا بالنبلِ ، لا نُؤْتَيَنَّ من قِبَلِك ، إنْ كانتْ لنا أو علينا فاثبتْ مكانَك ، لا نُؤْتَيَنَّ من قِبَلِك .

الرسـول القـائد :

وقد قادَ الرسولُ أكثرَ الغزواتِ الإسلاميةِ ، فكان بذلكَ يدرِّبُ قادتَه تدريباً عمليًّا على المعاركِ والصمودِ فيها ، وقد وصفَه على بن أبى طالب فى ذلك المجالِ بقوله : إنَّا كنا إذَا اشتدَّ البأْسُ واحمرَّتْ الحدَقةُ اتَّقَيْنا برسولِ الله ، فما يكون أحدٌ أقربَ من العدوِّ منه ، ووصفه عبد الله بن عمر بقوله : ما رأيتُ أشجعَ ولا أنْجدَ ولا أجْوَدَ ولا أرضَى من رسول الله ﷺ .

الالتزامُ بمرضاةِ الله ورسولِه :

وقد تأثر القادةُ المسلمون بأقوالِ الرسولِ وفِعْلِه تأثُّراً كبيراً ، وحقَّقوا فى الغزواتِ أَسمَى الأهدافِ التى يَعْجزُ الأبطالُ عن تحقيقِها ، حتى ليُرْوَى أنَّ على بن أبى طالبِ قتَلَ فى غزوةِ بدرٍ نحو ثمانيةَ عَشَرَ رجلًا من المشركين ، وكان

منهم نوفلُ بنُ خُوَيْلد ، ويُرْوى أنه لما الْتقى به عليُّ بن أبى طالبٍ صاحَ نَوْفلُ بعليٍّ : أَسأَلُك بالله والرحمِ أن تَكُفَّ عنِّى ، أنَا أَخُو خديجةَ وخالُ فاطمةَ . فقال عَليٌّ : لا قرابةَ بينَ مشرِكٍ ومسلمٍ ، لقد جئتَ لتقتلَ رسولَ الإسلامِ فحقَّ عليك القتلُ ، وقتَلَ أبُو عبيدة بن الجراح أباه عندما حاولَ هذا الأبُ أَنْ يَقْتُلَه لدخوله الإسلامَ ، وقالَ له وهو يَطْعَنُه : خُذْها فى سبيلِ الله ، وهكذا علَّمَهُم الإسلامُ أَنَّ اللهَ ورسولَه أحبُّ إلى الإنسانِ من كلِّ قريبٍ وكلِّ متاعٍ كما ذكرتْ الآيةُ الكريمةُ « قُلْ إِنْ كانَ آباؤُكم وأبناؤُكم وإخوانُكم وأزواجُكُمْ وعَشيرَتُكُم وأموالٌ اقْتَرفْتُمُوهَا ، وتجارةٌ تَخْشَوْن كَسَادَها ، ومساكِنُ تَرْضَوْنَهَا أحبَّ إليكم من اللهِ ورسولِه وجهادٍ فى سَبيلِه فتربَّصُوا .... (سورة التوبة الآية ٣٥) .

التحذيرُ منَ الفِرارِ :

ومما عُنِىَ به الرسولُ عنايةً كبيرةً التحذيرُ من الفِرارِ ، وعدَّه الرسولُ من الكبائِرِ العظْمَى والمُوبِقَاتِ (المُهْلِكات) السبعِ ، قال عليه السلام :

— ثلاثةٌ لا يَنْفَعُ معهنَّ عملٌ : الشركُ باللهِ ، وعقوقُ الوالدَيْنِ ، والفِرَارُ من الزحفِ .

– اجْتَنِبُوا السبعَ المُوبِقَاتِ ، قالوا وما هنَّ يا رسولَ الله ؟ قال : الشركُ باللهِ ، وقتلُ النفسِ التى حرَّم اللهُ إلا بالحق ، وأكلُ الرِّبَا ، وأكلُ مالِ اليتيمِ ، والتولىِّ يومَ الزحفِ ، وقذفُ المحصناتِ المؤمناتِ ، والسحرُ .

وقد يجوزُ الفِرارُ لتدبيرٍ حربىٍّ فى حدودِ قولِه تعالى « يَاأَيُّها الذينَ آمَنُوا إذا لَقِيتُمْ الذينَ كَفَرُوا زَحْفاً فلا تُولُّوهم الأَدْبَارَ ، ومن يولِّهم يومئذٍ دُبُرَه إلا مُتَحَرِّفاً لقتالٍ أو متحيزاً إلى فِئَةٍ فقد باءَ بغضبٍ من اللهِ ومأواهُ جهنمُ وبئسَ المصيرُ . (سورة الأنفال الآيتان ١٥ – ١٦) .

وإذا كانَ الفِرارُ مَقْبُولاً أحياناً من المسلمينَ لصالحِ المعركةِ فإنَّ الرسولَ ﷺ لم يُعْطِ لنفسِه الحقَّ فى الفرار قطُّ مهما كانَتْ الأحوالُ ، كما حدثَ فى غزوةِ حُنَيْنٍ ، فقد فرَّ أصحابُه من هَوْلِ المفاجَأةِ ، ولكنَّه وَقَفَ كالطَّوْدِ الشَّامخِ لا يزِلُّ ولا يَفِرُّ ، وحَكَى القرآنُ الكريمُ هذا الموقفَ بقولِهِ « إذ تُصْعِدُونَ ولا تَلْوُونَ على أَحَدٍ والرسولُ يَدْعُوكُمْ فى أُخْرَاكُمْ » (سورة آل عمران الآية ١٥٣) .

الرسول لم يقتُلْ إلا شخصاً واحداً :

ونَصِلُ إلى نقطةٍ مهمَّةٍ لعلَّ هنا أَوَانُ ذِكْرِها ، فإنه مع هذه

البُطُولَةِ الفَائِقةِ والثباتِ الرائعِ الذى أَلْمَمْنَا ببعضِ مظاهِرِهِ لم يَقْتُلْ الرسولُ أحداً بيدِه إلا شخصاً واحداً هو : أُبَىُّ بنُ خَلَفٍ ، ويَرْوِى ابنُ هشامٍ سببَ ذلك فيقولُ : إن أُبَىَّ بنَ خَلَف كان يَلْقَى الرسولَ بمكة فيقولُ له : يامحمدُ إنَّ عندِى « العَوْذَ » فرساً أَعلِفُه كلَّ يوم سأَقْتُلك عليه ، فيجيبُه الرسولُ : بل أَنَا أَقتلُكَ إن شاءَ الله . فلما كانتْ غَزْوَةُ أُحُدٍ وجُرِحَ الرسولُ وناله الأذَى جاءَ أُبَىٌّ وهو يصرخُ قائلًا : أين محمدٌ ؟ لانجوتُ إنْ نَجا ، فهمَّ المسلمون للقائِه ، ولكنَّ الرسولَ قال لهم : اتْرُكوه . وأخَذَ الحرْبَةَ من الحارث بن الصمة ، ونتفضَ بها انتفاضَةً هزَّتْ القومَ ، وضَرَبَ بها أُبَىَّ بنَ خلفٍ ضربةً أصابَتْ عُنُقَه ، فانقلبَ عن فرسِه ، وأخذَ يَتَدَحْرَجُ ، وأسرعَ إلى قريشٍ يقول : قَتَلنى محمدٌ . فلما رأَوْا جُرْحَهُ وجدُوه غيرَ عميقِ الغَوْرِ ، فقالُوا له : هَوِّنْ عليك فما بكَ من بَأْسٍ ، **فقال : أبداً كَذَبْتُم . لقد روَّعنى محمدٌ ، والله لو بَصَقَ علىَّ لقتلنى ، وماتَ فى الطريقِ إلى مكةَ .**

القوادُ الذين اختارهم الرسولُ :

وكانَ الرسولُ يختارُ للسرايا عَمَالِقَةَ الأبطالِ المسلمِين الذين عَرَف فيهم شدَّةَ البأْسِ وعمقَ الصبرِ ، والشجاعةَ ، من أمثالِ

عبيدةَ بنِ الحارثِ ، وسعدِ بن أبى وقّاص ، وعبدِ الله بنِ رُواحه وزيدِ بن ثابت ، وأبى عبيدةَ بنِ الجراحِ ، ثم أصبح من خيرةِ قوادِه خالدُ بن الوليد ، وعمرُو بن العاص ، عندما دخلا الإسلامَ .

وهناك غزوةٌ وحيدةٌ لم تكُنْ بقيادةِ الرسولِ ، وإنما اختَارَ لقيادَتِها بعضَ أبطالِ المسلمينَ ، تلك هى غزوةُ مُؤْتَةَ ، وقد أدركَ الرسولُ خطورةَ هذا اللقاء ، إذْ كانَ أولَ لقاءٍ مع جَحَافِلِ الرومِ ، ولذلك اختَارَ زيدَ بن حارثةَ ليكونَ أميرَ القومِ ، وقال : إنْ أصيبَ زيدٌ فجعفر بنُ أبى طالبٍ ، فإن أصيبَ ، فعبدُ اللهِ بنُ رواحة ، فإن أصيبَ فليَرْتَضِ المسلمونَ قائداً من بينهم ، والرسولُ فى هذا يَحْتَاطُ للمعركةِ ، فيعيِّنُ أكثرَ من واحدٍ بالتَّوالي ، ثم يَدَعُ الزمامَ للجنودِ ليختارُوا قائِدَهُمْ إنْ سقطَ القوادُ الذين عينَهم الرسولُ .

وكانتْ أهمَّ وصيةٍ يُعْنَى بها الرسولُ هى التعاونُ فى صفوفِ الجيشِ ، وقد سبقَ أن ذكرْنَا أنَّه أرسلَ عمرَو بن العاصِ يقودُ ثَلَاثمائة رجلٍ من المسلمينَ لمواجهةِ جماعاتٍ من قُضَاعَةَ تَتَجَمَّعُ وراءَ وادِى القُرَى ليُغِيرُوا على المدينةِ ، وكانَ ذلك عَقبَ غَزْوَةِ مؤتَةَ ، وأحسَّ عمرٌو أنَّ قوةَ العدوِّ أكبرُ من

قُوَّتِه ، فبعثَ إلى الرسولِ يَطْلُبُ مَدَدًا ، فأرسلَ له الرسولُ مددا بقيادةِ أبي عبيدة بن الجراحِ ، وكانت وصية الرسولِ لأَبى عبيدةَ قصيرةً وحاسمَةً هى : إنْ قدمتَ على صاحِبكَ فَتطَاوَعَا ولا تَخْتَلِفَا ، وعندَما وصلَ المددُ قال عمرو : أَنَا أميرُ الجيشِ وأنتم مَدَدٌ لى ، وقال بعضُ أتباعِ أَبِى عبيدةَ : إنَّ أَبَا عبيدةَ هو أميرُنا ، ولكنَّ أَبَا عبيدةَ سرعانَ ماحَسَمَ الأمرَ عندما قالَ : إن الرسولَ أَمَرَنِى أَلَّا نختلفَ ، وأَنا ومنْ معى تحت إمْرَتِك ياعمرو .

وهذا مثلٌ تكَّرر بين قواد المسلمين .

وكانَ من عادةِ الرسولِ إذا أرسلَ سَرِيَّةً أن يَسْأَلَ الجنودَ عندَ عودَتِهِمَ عن أحوالِهِم وصلاتِ قَائِدِهم بهم ، وعن مَدَى التعاونِ الذى تَمَّ بينهم .

آدابُ الحروبِ فى الإسلام :

بقيتْ فى مجالِ الحديثِ عن تربيةِ القوةِ العسكريةِ أَنَّ الرسولَ صلواتُ الله عليه وَضَعَ نموذجًا لم تَقْوَ المدنِيَّةُ الحدِيثةُ على تَبَنِّيهِ حتَّى الآن ، وذلك النَّمُوذَجُ يتَّضِحُ من أحاديثِ الرسولِ التى نَرْوِى بعضَها فيما يَلِى :

عن ابن عباس قال : كانَ رسولُ الله ﷺ ، إذا بَعَثَ جيوشَه قال : اخْرُجُوا باسمِ اللهِ ، تقاتِلون فى سبيلِ اللهِ ، لاتَغْـدِرُوا ، ولاتُمَثِّلُوا ، ولاتَقْتُلُوا الوُلْدَانَ ، ولاأصحابَ الصَّوَامِعِ .

- وعن أنس أنَّ الرسولَ صلواتُ الله عليه قال : لاتقتُلُوا شيخًا فانيًا ، ولا طفلًا صغيرًا ولا امرأةً .

- وعن رباح بن ربيع أنه خَرَجَ مع الرسولِ فى غزوةٍ غَزَاها ، وكانَ على مقدِّمَتِه خالدُ بن الوليد ، فمرَّ الرسولُ على امرأةٍ مقتولةٍ فقال : ما كانتْ هذه لتُقْتَلَ ، ثم التفتَ إلى أحدِ أصحابِه وقال له : الْحَقْ بخالدٍ فَقُلْ له : لاتَقْتُلُوا امرأةً ولا ذُرِّيَّةً ولا عَسِيفاً (أجيرا) .

ومن هذه الأحاديثِ الشريفةِ اتَّجَهَ المسلمونَ إلى إنَّه لايُقْتَلُ شيخٌ ولاصَبِيٌّ ولا امرأةٌ ولا عاملٌ ما دامَ هؤلاءِ لم يَشْتَرِكُوا فى الحربِ ، ولايُقْطَعُ شَجَرٌ ولايُخَرَّبُ عامِرٌ ، ولايُؤْذَى حيوانٌ ، ولايُحْرَقُ زَرْعٌ ... وتلك كما قلنا أفكارٌ ساميةٌ رَسَمَهَا الرسولُ صلوات الله عليه ، وسارَ عليها أصحابُه بعدَه ، وعلى الرغم من أن المدنيَّة الحديثةَ اقْتَبَسَتْ الكثيرَ من الفكرِ الإسلامىِّ فى مجالِ السياسةِ والاقتصادِ وغيرِهما ، فإنها

لم تَستطِعْ أن تَقتبسَ اتجاهاتِ الإسلامِ وآدابه فى مجالِ السلمِ والحربِ ، فالقوةُ لا تزالُ هى التى تَحْكُمُ البشرَ ، وفى الحروب الحديثة يَتَعَرَّضُ الأبرياءُ للموتِ ، ويُدَكُّ العمرانُ ويُحْرَقُ الزرعُ ، ولا يُفَرِّقُ المعتدُونَ بينَ محاربٍ ومسالمٍ .

تلك هى القوةُ العسكريةُ التى بَنَاها الرسولُ ، والتى قُدِّرَ لها أن تُحَقِّقَ فى حياتِه أعظَمَ انتصار على قُوَى الباطِل بالجزيرةِ العربيَّةِ فى مكَّة وفى المدينةِ وخيبر وحنينٍ والطائف ... وقُدِّرَ لها بعد وفاتِه أنْ تنتصرَ على جيوشِ الأكاسرةِ والقياصرةِ ، وأنْ تَرْفَعَ عَلَمَ التوحيدِ على السَّوارِى فى أعظمِ امبراطورِيَّتَيْنِ عَرَفَهُمَا ذلك الزمانُ .

الرسول يربى الولاة والحكام

لقد شاهدَ الرسولُ وهو بالمدينةِ إتِّسَاعَ الدولةِ الإسلاميةِ التى أوْشَكَتْ أن تَشْمَلِ الجزيرةَ العربيَةَ كلَّها ، ودعا الرسولُ أمراءَ البلادِ المحيطةِ بالجزيرةِ وملوكَها إلى الإسلامِ ، وامتدَّتْ آمَالُه إلى دُخولِ هذه الممالكِ فى حَوْزَةِ دينِ اللهِ ، ومن هنا اتَّجَهَ الرسولُ لتربيةِ الولاةِ على الأقاليمِ التى استجابتْ له .

ولما كان الرسولُ ليس طالبَ مُلْكٍ ، فأىُّ رئيسٍ أو مَلِكٍ يدخلُ الإسلامُ يَظَلُّ فى مكانتِهِ ، وكلُّ ما يلتزِمُ به هو أنْ يَتَبنَّى الفكرَ الإسلامىَّ بالنسبةِ للحاكمِ ، هذا الفكرُ الذى يَتَمَشَّى مع قولِه عليه السلامُ « اثنَانِ من أُمَّتِى إذا صَلَحاَ صَلَحَ الناسُ ، وإذا فَسَدَا فَسَدَ الناسُ : العلماءُ والأمراءُ » فالرسولُ صلوات الله عليه يدركُ أهمِّيَّةَ الحاكمِ بالنسبةِ للرعيةِ ، فإذا كان صالحا أحسنَ اختيارَ معاونِيهِ ، وأحسنَ معاونُوهُ بالتالي سلوكَهم مع الرعيةِ ، فتستقرُّ الأمورُ ويسعدُ الناسُ ، وعلى عكسِ ذلك يكونُ الحاكمُ الفاسدُ .

وتعاليمُ الرسول فى مجالِ تربيةِ الولاةِ والحكَّامِ تَتَدَرَّجُ تدرُّجاً طبيعيًّا ، فهى تتحدَّثُ عن ضرورةِ الرئيسِ ، ثم تَنْثَنِى للحديثِ عن شروطِه والتزاماتِهِ ، ثم تُلْزِمُه بحسنِ اختيارِ

معاونِيهِ ، ومتابَعَتِهِمْ ، ... وسنَرْوى من أحاديثِ الرسولِ فيما يلى مايوضِّحُ هذه الخَطواتِ .

فعن ضرورةِ الرئيسِ والرائِدِ يقولُ ﷺ :

– إذَا خَرَجَ ثلاثةٌ فى سَفَرٍ فليؤَمِّرُوا عليهم أحدَهم .

– لا يحلُّ لثلاثةٍ يكونون فى فلاةٍ من الأرضِ إلا أمَّرُوا عليهم أحدَهم .

عدالَةُ الرئيس وعقوبةُ ظُلْمِهِ :

وعن شروطِ الرئيسِ أو الحاكِمِ يَضَعُ الرسولُ صلواتُ الله عليه العلمَ والعدالةَ فى قِمَّةِ هذه الشروطِ ، ويحذِّرُ من الظلمِ والجهلِ وغِشِّ الرعيةِ ، وفى ذلك يقولُ عليه السلَام :

– إن أَحبَّ الناسِ إلى الله يومَ القيامةِ وأَدْناهُـمْ منـه مجلساً إمامٌ عادلٌ ، وأَبغضُ الناسِ إلى الله يومَ القيامـةِ وأبعدُهـم منـه مجلسًا إمامٌ جائرٌ .

– كلُّكُم راعٍ وكلُّكم مسئولٌ عن رَعيَّتِهِ ، فالأميرُ الذى على الناسِ راعٍ وهو مسئولٌ عن رعيَّتِهِ ، والرجلُ راعٍ على أهلِ بيتِه وهو مسئولٌ عنهم ، والمرأةُ راعيةٌ على بيتِ زوجِها وهى مسئولةٌ عنه .

– ما مِن أميرٍ يباتَ ليلةً غاشًا لرعيَّتِهِ إلا حَرَّمَ اللهُ عليه الجنةَ .

– ما من عبدٍ يَسْتَرْعِيهِ اللهُ رعيةً يموتُ يومَ يموتُ وهو غاشٌّ لرعيَّتِهِ إلا حرَّمَ اللهُ عليه الجنةَ .

ويحذِّرُ رسولُ اللهِ أولئك الأمراءَ والولاةَ الذين يعذِّبونَ الرعيةَ بأيةِ صورةٍ من صُوَرِ التَّعذيبِ ، وفى ذلك يقولُ ﷺ : إنَّ اللهَ يعذِّبُ فى الآخرةِ من يعذِّبونَ الناسَ فى الدنيا ، ويقولُ : اللهمَّ مَنْ وَلِيَ من أمْر أُمَّتي شيئاً فشقَّ عليهم فاشقُقْ عليه ، ومن وَلِيَ من أمرِ أُمَّتى شيئاً فرَفَقَ بهم فارْفُقْ به .

حسن اختيار الرئيس لمساعديه :

ويوجِّه الرسولُ صلوات الله عليه اهتماماً كبيراً إلى اختيارِ المساعدينَ ، ويُنْزِلُ المسئوليةَ على الرئيسِ إنْ أساءَ الاختيارَ ، أو إن تساهلَ مع مساعدِيهِ إنْ أهملوا وهو فى ذلك يقول :

– مَنْ وَلِيَ مِنْ أَمْرِ المسلمينَ شيئاً فولَّى رجلًا وهو يَجِدُ من هو أصلحُ منه فقد خَانَ اللهَ وخانَ رسوله وخان جماعةَ المسلمين .

– من قلَّدَ رجلًا على عصابةٍ وهو يَجِدُ فى تلك العصابةِ

منْ هو أرْضَى منه ، فقد خَانَ اللّٰه وَخانَ رسولَه وخانَ جماعةَ المسلمين .

ضرورةُ الشورَى الحقيقيَّةِ :

وألزَمَ الرسولُ الحكَّامَ والولاةَ أن يَستَشيرُوا استشارةً حقيقيَّةً فيما يعرضُ لهم من شئونٍ ليس فيها نَصٌّ صريحٌ . وأن يَقْبَلُوا رأْيَ الأغلبيةِ ، ففى غزوةِ بدرٍ نَزَلَ الرسولُ بجنودِهِ منزلًا ، فسأله الحبابُ بنُ المنذر : هل أنزلَكَ اللّٰهُ هذا المنزلَ أو هو اجتهادٌ من عندِك ؟ فأجابَ الرسولُ : إنَّهُ اجتهادٌ من عندِى . فقال الحبابُ : أمَا إذْ كانَ الأمرُ كذلك فليس هذا بمنزلٍ . وأشارَ بمكانٍ آخرَ أيَّدَه فيه المسلمونَ فارْتَضاه الرسولُ وانتقل إليه .

وفى غزوةِ الأحزابِ اتَّفَقَ الرسولُ مع أهلِ الطائِفِ على أن يَنْفَضُّوا ويفكُّوا حصَارَ المدينةِ ، وأعدَّهم وثيقةً نظيرَ ذلك بأن يَأْخُذُوا ثُلثَ ثِمارِ المدينةِ ، وعَرَضَ هذه الوثيقةَ على زعماءِ المدينةِ لتوقيعها فسألَه سَعْدُ بنُ مُعاذٍ عما إذَا كان للوحْيِ دخلٌ فى هَذَا الاتفاقِ ؟ فقال له الرسولُ : إنما هو أمْرٌ صنعتُه للمسلمِين راجياً من ورائِه الخيرَ . فَرَفَضَ أهلُ المدينةِ التوقيعَ على الصحيفةِ . وقال سَعْدٌ : إنهم لم يَنَالُوا منَّا فى الماضِى ثمرةً

إلا قِرًى (أى تفضُّلا) ، أَفَبَعْدَ أَنْ أَعزَّنا اللهُ بك ، يأخذونَ ثُلُثَ ثمارِ المدينةِ عَنْوَةً ؟ لا واللهِ . ورَجَحَ هذا الرأىُ وارتَضاهَ الرسولُ (رواه البخارى) .

وعن الشُّورى ، يقولُ أبو هريرة : ما رأيتُ أحداً قط كانَ أكثرَ مشاورةً لأصحابِه من رسولِ الله ، وكان أبو بكر وعمرُ فى مقدمةِ الصحابةِ الذين كانَ يعتَمِدُ عليهم فى الاستشارةِ ، ويُرْوَى أنه قالَ لهما : وأَيمُ اللهِ لو أنكما تَتَّفِقَانِ على أمرٍ ما خالفْتُكما فيه .

وقد قلنا إنَّ الشورى المطلوبةَ هى الشورى الحقيقيةُ ، وعلى هذا فالمجالسُ والهيئاتُ التى لا تعبِّرُ عن رأيِ الشعبِ حقيقةً هى عملٌ زائفٌ خدَّاعٌ ليسَ من الإسلام[1] .

ويؤكِّدُ الرسولُ أنَّ الولايةَ على الناسِ مهمةٌ صعبةٌ وأنه ينبغِى ألَّا يتقدَّم لها إلا من عَرَفَ فى نفسِه أنَّهُ أهلٌ لها ، فإن تقدَّمَ لها من ليس أهلًا لها وخَدَعَ الناسَ حتى اختِيرَ لهذا المنصبِ ، فإنه يَنْطَبِقُ عليه قولُه ﷺ :

– من أَمَّ قوماً وهم له كارِهون ، لم تَجُزْ صلاتُه أُذُنَيْه .

---

(١) عرف المسلمون الشورى ليتخذوا قراراً ، وعرفوا المعارضة لقرارٍ قد اتُّخِذ (انظر : السياسة فى الفكر الإسلامى للمؤلف) .

ـ إنكم ستَحْرِصُون على الإمارةِ وستَكُونُ عليكم يومَ القيامةِ ندامَةً .

ويوضِّحُ الرسولُ صلوات الله عليه أَنَّ اللهَ يُعِينُ مَنْ اختِيَر للرياسةِ بواسِطةِ الناسِ ، أما الذى يَسْعَى لَها دونَ التأكُّدِ من التزَامَاتِها ، فإنَ الله لا يُعِينُه ويَكِلُه إلى نَفْسِه ، وفى ذلك يقولُ عليه السلام لعبدِ الرحمنِ بن سمرةَ : لا تسأَلِ الإمارَةَ فإنك إنْ أُعْطيتَها من غيرِ مسأَلةٍ أُعِنْتَ عليها وإنَ أُعْطِيتَها عن مسأَلةٍ وُكِلْتَ إليها ، ويُرْوَى أَنَّ أبا ذرٍّ قالَ للرسولِ : أَلا تَسْتَعْمِلُنى يارسولَ الله ؟ فضربَ الرسولُ بيده على مَنْكِبِهِ وقال : ياأَباذَرٍّ إنك ضعيفٌ ، وإنَّها أَمَانَـةٌ ، وهـى يومَ القيامـةِ خِزْىٌ وندامَةٌ ، إلّا مَنْ أَخذَها بحقِّها وأدَّى الذى عليه فيها . (رواه البخارى) .

وعندما يُخْتار الرئيسُ على هذه الأسسِ تَجِبُ طاعته مالَمْ يَأْمرْ بمعصيةٍ فلاتجبُ الطاعةُ ، قال عليه السلام : لا طاعةَ لمخلوقٍ فى معصيةِ الخالقِ .

لايَتَجَسَّسُ الحاكُم على الرعيةِ :

وهناكَ موضوعٌ خطيرٌ اهتمَّ الرسولُ به كلَّ الاهتمامِ ، ذلك

هو أنه ليس من حقِّ الحاكمِ أن يَتَجَسَّسَ على الرعيةِ ، وأنْ يبحثَ عن عَوْرَاتِهم ، فليسَ له دخلٌ فيما يَسْتُرُونَ ما دامَ ذلك لم يَنْقَلِبْ إلى تَصرُّفٍ يَضُرُّ بالدينِ أو الدولةِ ، وفى ذلك يقولُ الرسولُ ﷺ :

– إنَّ الأَمير إذا ابْتَغَى الرِّيبةَ فى الناسِ أَفْسَدَهُمْ .

ويقول : لا تَتَبَّعُوا عوراتِ المسلمينَ ، فإنَّ من تَتَبَّعَ عوراتِهم تَتَبَّعَ اللهُ عورَتَهُ حتى يَفْضَحَهُ ولَو فى جوفِ دارِه .

ويُرْوَى أَنَّ رجُلًا مشرِكًا فرَّ أَمَامَ أُسَامَةَ بن زيدٍ فى إحدَى المعاركِ ، ولحِقَ به أسامةُ فَنطَقَ الرجلُ بالشهادَتَيْنِ ، ولكنَّ أسامةَ ضَرَبَهُ ضَرْبةً قاتلةً ، فلما عرفَ الرسولُ ذلك صاحَ بأُسامة : أَقَتَلْتَه بعدَ أَنْ قالَها ؟ قالَ أسامةُ : إنه قالَها متعوِّذاً بها (أى قالها بدون عقيدة لينجوَ بها) قال الرسولُ : هل شَقَقْتَ عن قَلْبِهِ لتعرفَ ذلك ؟ .

واهتمَّ الرسولُ اهتمامًا كبيرًا بتحريمِ الهدَايَا على العمالِ إحساساً منه أَنَّها رشْوَةٌ قُدِّمَتْ باسم الهديَّةِ ، ويَرْوى أَبو سعيدٍ الخُدرى أَن رسولَ اللهِ صلَّى اللهُ عليه وسلَم قال فى ذلك : هَدَايَا العُمَّالِ غُلولٌ (أى سُحْتٌ وضلال) وقد سبق أن ذكرنا ذلك .

واهتمَّ الفكرُ الإسلاميُّ اهتماماً عميقاً بألَّا يعطِيَ الحاكمُ الفرصةَ لأقارِبِهِ ليَرْكبوا رِقَابَ الناسِ ، وليكون لهؤلاءِ الأقاربِ حَظْوَةٌ أو فُرَصٌ أكثرُ من باقى الرعيةِ على الإطلاقِ . وألا يَسْتَغِلُّوا الظروفَ لكَسْبِ حرامٍ .

وهكذا نَجدُ أن الرسولَ صلواتُ الله عليه أحاطَ بكلِّ الشئونِ فى مَجال تربيةِ الحاكِمِ والوالِى ، ويومَ يَنْتَفِعُ المسلمونَ باتجاهاتِ الرسولِ فى هذا المجالِ ، فإنَّ حالَهم يصبحُ غيرَ ما هم عليه الآن ، حيثُ أصبحَ الحكمُ وسيلةً للغِنَى ، يسعَى له كثيرونَ مِمَّنْ لا كفاءَةَ لهم ، وممَّنْ لا يعرِفونَ الفكرَ الإسلاميَّ ولا يِدِينُونَ به ، ومن هُنَا يُحيطُ هؤلاء أنفُسَهم بعناصرَ من طَبَقَتِهم ومن أهليهم الذينَ يَنْتَهِزُونَ الفرصةَ للكسبِ السريعِ البعيدِ عن الحلالِ ، فيعمُّ الفسادُ وتَنْتَشِرُ البلوَى ، ويحمِلُ الحاكمُ أكثرَ الذنوبِ لذلك ، **وأغلَبُ ما يعانيه العالَمُ الإسلاميُّ فى العهدِ الحاضرِ يرتَبِطُ بغيبةِ الرئيسِ الصالحِ وظهورِ الحاكمِ الفاسدِ والأعوانِ الضَّلَلَةِ على مسرحِ الحُكْمِ والحياةِ .**

مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب

رقم الإيداع بدار الكتب ١١٤٥٥/ ٢٠٠١

I.S.B.N 977 - 01 - 7311 - 8





بين الحلم والواقع كانت مسافة زمنية ربما بدت لى طويلة أو مختلفة ولكن الأهم أن الحلم أصبح واقعًا ملموسًا حيًا يتأثر ويؤثر، وهكذا كانت مكتبة الأسرة تجربة مصرية صميمة بالجهد والمتابعة والتطوير، خرجت عن حدود المحلية وأصبحت باعتراف منظمة اليونسكو تجربة مصرية متفردة تستحق أن تنتشر فى كل دول العالم النامي وأسعدنى انتشار التجربة ومحاولة تعميمها فى دول أخرى. كما أسعدنى كل السعادة احتضان الأسرة المصرية واحتفائها وانتظارها وتلهفها على إصدارات مكتبة الأسرة طوال الأعوام السابقة.

ولقد أصبح هذا المشروع كيانًا ثقافيًا له مضمونه وشكله وهدفه النبيل. ورغم اهتماماتى الوطنية المتنوعة في مجالات كثيرة أخرى إلا أننى أعتبر مهرجان القراءة للجميع ومكتبة الأسرة هى الإبن البكر، ونجاح هذا المشروع كان سببًا قويًا لمزيد من المشروعات الأخرى.

ومازالت قافلة التنوير تواصل إشعاعها بالمعرفة الإنسانية، تعيد الروح للكتاب مصدرًا أساسيًا وخالدًا للثقافة. وتوالى «مكتبة الأسرة» إصداراتها للعام الثامن علي التوالى، تضيف دائمًا من جواهر الإبداع الفكرى والعلمى والأدبى وتترسخ على مدى الأيام والسنوات زادًا ثقافيًا لأهلى وعشيرتى ومواطنى أهل مصر المحروسة مصر الحضارة والثقافة والتاريخ.

سوزان مبارك



سعر رمزى خمسون قرشا   مطابع الهيئة المصرية العامة للكتاب